التربية والتعليم عند القدماء

(٣)

واكبروا احترام التلامذة لاساتذتهم من ذلك أن البحتري كان تلميذ ابي تمام . فكان يقول اذا ذكر استاذهُ : « ذلك الرئيس الاستاذ والله ما اكلتُ الخبزَ الاَّ بهِ » ومنهُ قول ابن ليُّون التجيبي في ادب الطاعة المذكورة :

الذلُّ في طلب الافادة عزَّةٌ فاحرص على نيل الافادة ترشدِ
ان التعزُّز في الذي تحتاجهُ كبرٌ وكبر المرء اقبح مقصدِ

ولقد راعوا ميول الطلبة فلم يقسروهم على تلقن ما لا قبل لهم بهِ كقول احدهم:

ان مال طفلك للالعاب مشتغلاً بالنقش والحفر والتصوير تزيينا
لا تنههُ ربما عادت ملاعبهُ على الصناعة بالاصلاح تحسينا

ومما يدل على رفق الاساتذة بالطلبة في مراعاة هذه الميول ان يونس النحوي كان يختلف الى الخليل بن احمد يتعلم منهُ العروض ولم يكن شاعراً من طبعهِ فتعذَّر عليهِ التقطيع بعد معالجتهِ مراراً وتسهيلهِ عليهِ. فلما رآهُ الخليل كذلك اراد ان يصرفهُ عن هذا الفن دون ان يحقرهُ. فقال لهُ يوماً : قطع لي هذا البيت وكان قد قطع كثيراً من الابيات ولم يستفد فائدة بل ازداد ضلالاً عن الوزن :

اذا لم تستطع شيئاً فدعهُ وجاوزهُ الى ما تستطيعُ

فقطن يونس لما عناهُ الخليل وانصرف عن العروض الى غيرهِ مما لهُ ميل اليهِ فنبغ فيهِ

ومما يدل على حبهم للالمام في علوم كثيرة دون الاقتصار على احدها قول بعضهم:

ثقفْ وخذ من كل علم فانما يشوق المروءَ في كل فن لهُ علمُ
فانت عدوٌّ للذي انت جاهل بهِ ولعلم انت تتقنهُ سلم

ومن امثلة احترامهم للاساتذة والاقرار بفضلهم قول الآخر :

اذا افادك انسانٌ بفائدة من العلوم فاكثر شكرهُ ابدا
وقل فلان جزاهُ الله صالحةً افادنيها وألغ التكبر والحسدا
فالحرُّ يظهر شكراً للمعين لهُ خيراً ويحمدهُ ان قام او قعدا

وقول الآخر في اكرام الاستاذ :

ان المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان اذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك ان اهنت طبيبهُ واصبر لجهلك ان جفوت معلما

وكانوا يعتنون بتقويم الالسنة وضبط التلفظ بحروف الهجاء فان هرون الرشيد سأل الاصمعي يوماً : ما احسن ما مرَّ بك من تقويم اللسان . فقال : اوصى رجلٌ بعض بنيهِ بقولهِ : يا بنيَّ اصلحوا من السنتكم فان الرجل تنوبهُ النائبة فيتجمل فيها فيستعير من اخيهِ وابيهِ ومن صديقهِ ثوبهُ ولا يجدِ من يعيرهُ لسانهُ . وقال ابن الوردي في لاميتهِ :

جلِّ المنطق بالنحو فمن يحرم الاعراب بالنطق اختبل

وطالما حضوا على حفظ ما في الكتب لا على الاعتماد على وجودها في ايدي المطالعين باقوال كثيرة منها :

صاحب الكتب تراهُ ابداً غير ذي فهم ولكن ذا غلط
كلما فتشتهُ عن علمهِ قال علمي يا خليلي في سفط

وكثيراً ما كرهوا الدعوى في العلم بدليل قول احدهم :

ومن البلوى التي ليس لها في الناس كُنهُ
ان من يعرف شيئاً يدَّعي اكثر منهُ

وقول الشافعي شهدتُ مالكاً وقد سئل عن ٤٨ مسألة فقال في ٣٢ مسألة منها : لا أدري

وقد منع الابوان اولادهم عن التعلم ليساعدوهم في اعمالهم مثال ذلك ان ابا يوسف الانصاري الفقيه الكبير كان يشتغل عند قصار ويمرّ بحلقة ابي حنيفة فتأبى امهُ وتخرجهُ منها . ولما تكرر ذلك قالت لابي حنيفة : قد افسدت ابني عليَّ وهو فقير . فقال لها : اسكتي يا رعناء . ها هو يتعلم وسيأكل الفالوذج بدهن الفستق في صحون الفيروزج . فقالت انك شيخ قد خرفت . ولما قدم لهُ ذلك مرة على مائدة الرشيد ضحك : فسألهُ الرشيد عن ضحكهِ . فاخبرهُ بالقصة . فقال : ان العلم ينفع ويرفع في الدنيا والآخرة . ثم قال رحم الله أبا حنيفة . فلقد كان ينظر بعين عقلهِ مالا ينظر بعين رأسهِ

ومنع الاساتذة تلامذتهم عن المكابرة كما فعل ابو بكر الخوارزمي في تأنيب تلميذه الذي اخطأ في مجلس وكابر فكتب اليه :

بلغني انك ناظرت فلما توجهت عليك الحجة كابرت ولما وضح نير الحق على عنقك ضجرت وتضاجرت . وقد كنت احسب انك اعرف بالحق من ان تعقهُ . واهيب لحجاب الانصاف والعدل من ان تشقهُ . كأنك لم تعلم ان لسان الضجر ناطق بالعجز . وان وجه الظلم مبرقع بالقبيح . وانك اذا استدركت على نقد الصيارفة . وتتبعت خطأ الحكماء والفلاسفة فقد طرّقت الى عيبك لمائبك . ونصرت عدوّك على صاحبك . وقد عجبتُ من حسن ظنك بك . وانت انسان . والله المستعان

وحصر بعضهم قواعد التعلم بقولهِ وأجاد :

اخي لا تنال العلم الاّ بستةٍ سأُنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة وصحبة استاذ وطول زمانِ

وكرهوا ابتذال المدرسين حتى قال في ذلك احمد بن علي بن الحسن المؤدب المعروف بالقالي :

تصدر للتدريس كل مهوّس بليد تسمى بالفقيه المدرّسِ
فحق لاهل العلم ان يتمثلوا ببيت قديم شاع في كل مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كلّ مفلس

واحبوا افادة الطلبة ببذل الكتب لهم فقالوا :

كتبي لاهل العلم مبذولة يدي مثل يدهم فيها
فانها يا حسن كتبهم وظيفة الاشياخ نصبها

وخافوا فقدها باعارتها فقالوا :

ألا يا مستعير الكتب دعني فان اعارتي للكتب عارُ
فحبوبي من الدنيا كتابي وهل ابصرت محبوباً يعارُ

واخذوا الرهن عليها لاسترجاعها فقالوا :

لا تعيرنّ كتاباً واجعل العذر جوابا
وخذ الرهن عليهِ ان في ذاك صوابا
ان تكن خالفتَ قولي انت ضيعت الكتابا

وكثرت في هذا العصر المدارس الشهيرة ومعظمها كان اشبه باكبر الكليات والجامعات الاوربية اليوم فكانت عشرات منها في بغداد اهمها النظامية والمستنصرية فانفق نظام الملك على مدرسته النظامية مائتي الف دينار ورتب لها نحو خمسة عشر الف دينار تنفق على طلبتها الذين بلغ عددهم ستة آلاف وكان الفقراء يتعلمون فيها مجاناً . ولها قوانين وانظمة وتراتيب بديعة واجازات

وهكذا كانت مدارس دمشق وبقية البلاد الشرقية واشتهر النساء بالعلم حتى ان الامام الشافعي قرأ الفقه والحديث على اثنتين من عالمات عصره احداهن اسمها السيدة نفيسة . وكانت نساء بعض الخلفاء من العالمات المشهورات بالآداب وصحة الرأي حتى كنّ يشاركن ازواجهنّ بالملك مثل ام سلمة زوجة ابي العباس السفّاح . والخيزران زوجة المهدي . وزبيدة زوجة هرون الرشيد الشاعرة . وبوران زوجة المأمون التي اشتهرت بتأسيس المدارس واقامة المستشفيات للناس. وقطر الندى زوجة المعتضد. وزليخة ابنة نظام الملك. وخديجة اخت صلاح الدين الايوبي الملقبة (بست الشام) وهي التي اسست مدارس في دمشق

الى كثير من امثال هذه الشواهد الناطقة بعناية العرب في صناعة التدريس وتطبيقها على حاجاتهم فهي وان لم تكن موافقة للفن في العصر الحاضر فانها من ارق القواعد الموضوعة عند القدماء . ولقد تناول العرب علومهم عن اليونان والرومان والفرس والهنود فجمعوا بين آداب الشرق والغرب

***

وأما آداب التربية والتعليم في الاندلس والمغرب فبلغت درجة سامية من الارتقاء وكثرت عنايتهم بها . فكانوا يقرأون العلوم في المساجد بأجرة . ولكنهم اعتنوا بفروع العلوم ما عدا الفلسفة والتنجيم فلم يكلف بهما عندهم الا الخواص. واعتمدوا على القراآت السبع ورواية الحديث كل الاعتماد وكان فقههم على مذهب الامام مالك ولقبوا العالم فقيهاً . وكان علم الاصول متوسطاً عندهم ولكن علم النحو كان في المحل العالي حتى اشبه عصرهم بعصر الخليل وسيبويه في المشرق . وكان انبل علم عندهم علم الادب المنثور من حفظ التاريخ ومعرفة آداب النظم والنثر ومستظرف الحكايات . اما الشعر فنال عندهم حظاً عظيماً حتى كان للشعراء اكبر منزلة عند الملوك واجروا عليهم الوظائف

ولقد توفرت عندهم المدارس وكلفوا بالعلم حتى كان في قرطبة وحدها ثمانون مدرسة في القرن الرابع للهجرة على عهد ابن عبد الرحمن الناصر وفي القاهرة عشرون مدرسة عدا مدارس القيروان وغيرها من مدارس المغرب والاندلس

واشتهرت في المغرب كثيرات من العالمات مثل شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين ايوب التي تولت الملك ولقبت ملكة المسلمين. وتقية المصرية واضرابهما وفي الاندلس الزهراء زوجة عبد الرحمن الاموي الثالث الملقب بالناصر بنى قصر الزهراء باسمها ووضع تمثالها فيه لانها كان عظيمة القدر . وولادة الشاعرة ابنة المستكفي بالله . وكانت سمدونة تقرىء الحديث والكلام في مدرسة قرطبة. والعروضية اقرأت النحو والبيان والعروض في بلنسية

***

اما عناية العرب بتربية النفس في المشرق والمغرب فكانت كبيرة بدليل ما كتبوا نثراً ونظماً والفوا في الاخلاق والآداب والحكم والنصائح مما لا يجاريهم فيه مجار. ولهم في ذلك تفننات تأخذ بمجامع القلوب فنها ما قاله القزويني في عجائب المخلوقات : النفس أمير والعقل وزيره والقوى جنوده والحس المشترك بريده والاعضاء خدمه والبدن كل مملكته . والحواس يسافرون في جميع الاوقات في عالمها ويلتقطون الاخبار الموافقة والمخالفة ويعرضونها على الحس المشترك الذي هو واسطة بين النفس والحواس على باب المدينة وهو يعرضها على القوة العقلية لتختار ما يوافق وتطرح ما يخالف

وقال ابن المقفع : ما نحن الى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب باحوج منا الى الادب الذي هو لقاح عقولنا

وقال الفارابي : ان الانسان منقسم الى سر وعلن . اما علنه فهو الجسم المحسوس باعضائه واقسامه وقد وقف الحس على ظاهره ودل التشريح على باطنه. واما سره فقوى روحه

فمن الاعتماد على النفس قول الطغرائي :

واغا رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل

ومن التساهل في السلوك قول الآخر :

واني لألقى المرء أعلم انهُ عدوٌّ وفي احشائهِ الضغن كامنُ
فامنحهُ بشراً فيرجع قلبهُ سليماً وقد ماتت لديهِ الضغائنُ

ومن تهذيب النفس قول الشنفرى :

اقيل على النفس واستكمل فضائلها فانت بالنفس لا بالجسم انسانُ

ومن اكتساب الآداب بالتشبه والتحدي قول بعضهم :

يربو الغلامُ على اخلاق مرشده لم يدرِ أنفع يجني منهُ ام ضررا
حتى اذا شبَّ في اخلاقهِ ثبتت فيهِ ولم يستطع تغييرها العمرا

ومن تكلف حمل المشاق لتحصيل العلوم قول ابي تمام :

وظلمت نفسك طالباً انصافها فعجبت من مظلومة لم تظلم

ومن آداب التهذيب عندهم قول الدؤلي :

يا ايها الرجل المعلم غيرهُ هلاَّ لنفسك كان ذا التعليمُ
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى كيما يصحَّ بهِ وانت سقيمُ
وتراك تصلح بالرشاد عقولنا ابداً وانت من الرشاد عديمُ
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها فاذا انتهت عنهُ فانت حكيمُ
وهناك يقبل ما تقول ويُقتدى بالقول منك وينفع التعليمُ
لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثلهُ عارٌ عليك اذا فعلتَ عظيمُ

وقول معن بن اوس في قصيدته التي ضمنها احسن الاخلاق ومظلمها :

وذي رحم قلَّصتُ اظفار ضغنهِ بحلميَ عنهُ وهو ليس لهُ حلمُ
يحاول رغمي لا يحاولُ غيرهُ وكالموت عندي ان يحلَّ بهِ الرغمُ

وقول الآخر :

مكارم الاخلاق في ثلاثة منحصره
لين الكلام والسخا والعفو عند المقدره

الى كثير من امثال ذلك في القصائد الحكمية والمقاطيع الاخلاقية واقوال البلغاء والحكماء

***

ولما انحطت آداب اللغة وتقهقرت أُهملت آداب التربية والتعليم ولكن كثيراً

من المدرسين والمؤلفين كانوا ينزعون الى تجديدها باتقان التلقين واجادة التأليف حتى لم تحرم الايام المتأخرة ممن افادوا اللغة والصناعة عمارفهم ولكنهم قليلون لا يكاد عددهم يتجاوز الانامل في المشرق والمغرب الى ان جاء عصر النهضة الحديثة فاستعادوا ذلك وحسنوه

هذه لمحة عن التربية والتعليم عند العرب سنردفها بلمحة ثالثة في كتب التربية والتعليم عندهم وانتخاب شيء منها امثلة لآداب الصناعة والله سبحانهُ من وراء حسن القصد زحلة عيسى اسكندر المعلوف

يهود العراق

(٢)

يجمل بنا ان نورد هنا ملخص مرويات السائح اليهودي بنيامين بن يونا التطيلي الذي زار العراق حوالي سنة ١١٦٠ وكتب شيئاً كثيراً عن احوال بني جلدته في هذا القطر ومما قال :

ان رئيس الربانيين كان يخرج في الطريق ويتقدمهُ منادٍ ينادي بصوت عالٍ سهلوا الطريق لابن داود . وكان الخليفة قد أمر جميع الناس على اختلاف مللهم ونحلهم ان يقوموا اجلالاً لهُ ومن لم يقم يجلد وان كان من المسلمين وكان لليهود عدة مجالس تدير شؤونهم وقد اسهب كل الاسهاب في اعمال تلك المجالس ولكن بعد عشرين سنة من زيارة بنيامين العراق زارهُ الربان بناشيا من مدينة راتزبون (١١٨٠) وقال ان في بغداد نحو ١٠٠٠ يهودي يخرجون دائماً مبرقعين

ويظهر من اقوال المؤرخين ان الخلفاء العباسيين كانوا يصادقون على انتخاب رؤساء الربانيين برسوم يضاهي الفرمان الذي كان يعطيهم اياهُ سلاطين آل عثمان. وطريقهم في كتابة المراسيم ان يفتتح بلفظ « هذا كتاب امر بكتبهِ فلان ابو فلان الامام الفلاني امير المؤمنين الفلاني لفلان ثم يقال اما بعد فالحمد لله ويؤتى فيهِ بتحمدة او ثلاث تحمدات ثم يذكر نظر الخليفة في مصالح الرعية حتى اهل الذمة وانهُ انهى اليهِ حال فلان وسئل في توليتهِ على طائفتهِ فولاهُ عليهم للميزة على غيرهِ من ابناء طائفتهِ ونحو ذلك ثم يوصيهِ بما يناسبهُ من الوصاية